

المصين في بيتي

أصرت زوجتي ، عليها رحمة الله ، أن نزور المعرض التجاري المصغر الذي يقام في أحد النوادي ويشترك فيه عدد لا بأس به من المحلات المتنوعة ، التي تبدأ من بيع الملابس وتنتهي ببيع التوابل . ورحنا نتجول في أجزاء المعرض فنجد شبابا يعرضون المنتجات بكفاءة وحيوية وذوق . ومما لفت نظري تواجد عدد من البائعات الصينيات بجوار المنتجات الصينية التي تخطف الأبصار ، وتتراوح بين ساعات الحائط ، والزهور الصناعية ، والمفارش ، والمتحف الصغيرة والجميلة مثل البيض المرخام الملون ، أو أكواب القهوة المزركشة . وفي الجولة الأولى للمعرض ، وجدتني مدفوعا لشراء بعض هذه المنتجات أولا لجمال صنعها ، وثانيا لرخص ثمنها . والمعجب أن البائعة الصينية ، التي أصبحت تعرف الأرقام العربية جيدا ، وبعض الكلمات المكسورة ، تستطيع أن تفاصل معك ، وتقنعك بالشراء ، وأحيانا ما تتنازل عن السعر المقدم لكي تعطيك السلعة بالسعر الذي تحدده أنت فتمضي وأنت مبسوط . وفي الجولة الثانية بالمعرض المصغر وجدتني أشتري أيضا بعض المنتجات الصينية ، وأكاد أؤكد أنني لو قمت بجولة ثالثة فإنني كنت سأشتري أيضا بضاعة صينية !

وعندما رجعت إلى المنزل ، وجدتني أفكر في شطارة الصينيين ، وكيف أنهم فهموا واستوعبوا السوق المصري ، كما عرضوا جيدا احتياجات الإنسان المصري وراحوا يقدمونها له بهذا الشكل الجذاب والرخيص الثمن . ولفت نظري شئ هام ، وهو أنهم يعرضون بضاعة قليلة جدا ، ولكنها لا تكاد تنتهي .. والمسر في ذلك أنهم لا يكذبون المعروض أمام الزبون ، وإنما يكتفون بعرض القليل الذي يجعلك تسرع بشرائها ، وبعد أن تمضي يخرجون غيرها من صناديقهم !

في المنزل ، رحت أتأمل سقف الحجرة ، فوجدت أن النجفة الكريستال التي اشتريتها هي صينية الصنع . وبجوارى كان الكاسيت من صنع الصين . وعلى الحائط بعض اللوحات المصنوعة من المعاج هي أيضا صينية . وعندما قدمت لي زوجتي كوب شاي على صينية من السانستيل الذي لا يصدأ إذا بها مكتوب عليها من الخلف صنع الصين ، ولم أتمالك نفسي ، فأخرجت سيجارة ، ونادرا ما أفعل ذلك ، وعندما أمسكت بالولاعة الأنيقة لكي أشعلها وجدت اسم الصين منقوشا عليها .. وحين أبدت هذه الملاحظة لزوجتي لم تندش كثيرا مثلي ، وقالت لي بكل بساطة : ولماذا تذهب بعيدا .. طيب ما كل الجاليب التي تلبسها من صنع الصين . وبصراحة إنها لا تكرم مثل القماش المصري !

يا خبر ! بدأ اسم الصين ، بالعربي والأجنبي يصيبني بعقدة من كل ما حولي ، وكلما اقتربت من شئ في المنزل أو استخدمته وجدت الاسم موجودا على ظهره ، حتى فرشاة الأسنان ، وفرشاة الحلاقة ، ومعجون تلميع الأحذية .. وبدأ إحساسي بالإعجاب بالمصنعة الصينية يتحول إلى غضب من الصناعة المصرية : أين هي ؟ ولماذا تراجعت ؟ وكيف السبيل إلى نهوضها من جديد ؟

وعندما سألت بعض المتخصصين أجابوني بأعصاب باردة : أصل الصين دى حاجة ثانية . يعنى أيه ؟ إن كل بيت فيها عبارة عن مصنع ، وكل مصنع صغير يمكن أن تصدر منتجاته إلى الخارج بدون تعقيدات جمركية . وكل إنسان صيني يغادر بلاده يمكنه أن يحمل في حقيبته بعض المنتجات التي يبيعها بالعملات المختلفة ، التي تتحول بعد ذلك إلى دولار يعود مرة أخرى إلى الصين ..

صممت أن أكتب عن هذا الموضوع الذي أرقنى طويلا ، وعندما أمسكت بالقلم الجاف ، وبدأت الكتابة به ، وجدتته أيضا من صنع الصين !